التضحية

للأستاذ محمد روحي فيصل

صلاحُ الأمة للبقاء أو قوة حيويتها إنما تظهر أشد الظهور إذا أصاب تلك الأمة شر ، أو ألمّ بها خطب ، أو انتابها أزمة في السياسة أو في المال ، أو في الأخلاق ، مما يجل وقعه ، ويشق احتماله ؛ ذلك لأن جميع الأمم تستطيع أن تعيش في الرخاء ، وتسمو بالنعيم ، ولكنها لا تستطيع كلُّها أن تعيش وتسمو إذا أحاقت بها الشدة ، وحفت بها المكاره ، وتنكر لها الدهر ، وعبست في وجهها الحياة

بلى ! قليلة جداً تلك الأمم التي تستطيع أن تعيش وتسمو إبان المحنة والداهية ، لأن كل أمة من الأمم تحتاج حينئذ إلى أن تستمد حياتها من حياة أبنائها ، وتعتمد في شفائها على سواعد أفرادها ؛ فاذا كان خُلُق التضحية قوياً فيهم ، متأصلا في نفوسهم ، مشتملا عليه كلهم أو جلهم ، نجت تلك الأمة من الشر إن كان نازلا بها ، أو تقدمت الى غايتها إن كانت لها غايةٌ عليا تعشقها وتطمح اليها

أما الأمة الأثَرَة التي لا تعرف من التضحية غير اسمها ، فهي محكوم عليها بالفناء والموت ، لا بد أن يخفي عليها الذي أخفى على لُبَد

لما اشتدت الأزمة المالية أخيراً على الأمة الانجليزية رأينا كيف أن مظاهر التضحية لم تنحصر في رؤساء الأحزاب فحسب ، وإنما تعدتهم إلى الأفراد رجالا ونساء ، فكانت الفتاة الفقيرة تهب سوارها الذهبي الذي أهدته اليها أمها قريرة العين طيبة الخاطر ؛ وكانت العائلة الفقيرة تتنزل راضية عن جنيه من كسبها الذي لا تحصل عليه إلا بشق الأنفس وترفقه بكلمة كهذه :

« مساعدة متواضعة للملكنا وشعبنا من أسرة (فقيرة) »

كذلك كل أمة نالت شأوا بعيداً في المجد ، وبلغت مكانة عالية بين الأمم ، ما نالت ذلك الشأو وما بلغت تلك المكانة ، إلا بتضحية أبنائها أمامها بالأنفس والأموال تضحية صادقة صحيحة ! ولعمر الحق ما كانت تكون لأجدادنا العرب ، أبناء الصحراء ، وساكني الجزيرة ، تلك السيادة الرفيعة ، وذلك السلطان المرهوب ، لو لم يكونوا متشبعين بخُلُق التضحية إلى أقصى مدى

ونحن ، إذا كنا قد تنبهنا بعد الغفلة واستيقظنا بعد النوم ، فاستأنفنا طريقنا إلى العلياء وطالبنا بحريتنا المسلوبة واستقلالنا المفقود ، فانما يجب أن نتجشم تكاليف ما نطالب به ونضحي لنيله القليل والكثير ، ونتحمل ما نلاقي في سبيله من ألوان المكاره وضروب المشاق ، ونصبر على صنوف العقبات حتى يلين صلبها ويسهل صعبها ، فانه لا تنال الطالب إلا مكافحة ومغالبة ، لأن الحياة معركة ، فما لم يدرك فيها باللباقة والمحاسنة ، أدرك بالعنف والمخاشنة ... !!

إن رجال هذه الأمة جميعاً ثلاثة : رجل لا علم له بما عليه من الواجبات نحو وطنه فلا يعنيه شأنه ، ولا يهمه أمره ، ولا يعبأ به ولا يحفله ، فهو جاهل ؛ ورجلٌ أخذ من الدين بقشوره ، وشرب من مورده العذب مصة خفيفة ظنها غاية ما يرتوي به المرتوون ، فقضى أوقاته في البحث في الحيرة والحيض والنفاس ، ونصب نفسه لعداوة كل جديد وإنكار كل ما لم يألف ، فهو جامد ؛ ورجلٌ يجري وراء منافعه الشخصية أينما رآها وتخيلها ، يراها في جانب مصلحة عامة فيظهر في زي المصلح الداعي إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها ، حتى إذا تراءت له منفعة خاصة لا يصل اليها إلا أن يقضي على ما ينفع الناس والوطن داسه بكلتا قدميه ، وذهب إلى منفعته نواً لا يلوي على شيء ، فهو خبٌ منافق

فاذا أزيل عن الأول جهله ، وأزيح عن الثاني جموده ، وشُجِّع على الثالث خبُّه ونفاقه ، وعمل على بث خلق التضحية فيهم وتقويته عندهم ، مع تبصيرهم بمقتضيات الأحوال كما يقول البديميون — إذا فعل هذا عظمت الفائدة ، وتوفرت العائدة على الوطن ، وسارت الأمة مسرعة إلى مطمحها

(حمص) محمد روحي فيصل